صور من القرن الثامن عشر

٢ - جاكومو كازانوڤا

جوّاب مجمع ومغامر مرح

للأستاذ محمد عبد الله عنان

قضى كازانوڤا صباه وفتوته الأولى محروماً من عطف والديه ، يجوز حياة مضطربة ، ويتقلب بين شظف العيش ورفاهته ، ويلقى بنفسه المضطرمة إلى غمار من اللهو والادمان والخلاعة ، ويلتمس متاع الحياة بأى الوسائل . وكان يرى الحياة لهواً ولعباً ، ولكن الحياة الناعمة تتطلب الرزق الوفير ، ولا بد أن يجد كازانوڤا لنفسه وسائل الارتزاق . وكانت المقامرة يومئذ رذيلة المجتمع الرفيع ، ولكنها كانت أيضاً ملاذ المقامرين من كل ضرب ، يلتمسون بها الرزق والثراء ؛ وكازانوڤا مقامر بارع ، فلم لا ينزل إلى هذا الميدان ؟ وبسم له الحظ في المقامرة ، وانتظم في سلك المقامرين المحترفين الذين يستحلون كل الوسائل للكسب أو للسرقة المستترة ؛ ورأى فوق ذلك أن يتشح بثوب الخفاء ، وأن يحترف الشعوذة وكشف الأسرار ؛ وكانت الأذهان يومئذ تشغف بالخفى والمجهول ، وكان كازانوڤا يجيد هذا الضرب من الشعوذة ، وقد رأيناه يتخذه سبيلا لتمكين نفوذه لدى صديقه وحاميه الجديد السيد براجادين

وهكذا نزل كازانوڤا إلى ميدان المغامرة مسلحاً بأسلحة العصر ، يلتمس الرزق من طريق المقامرة ، ويلتمس النفوذ من طريق الشعوذة ، ومن ورائه عصبة من الأصدقاء الأقوياء الذين يخلبهم بروائه وظرفه وشعوذته ؛ وكانت هذه الحياة في نظر المغامر هي المثلى ، وكان يرى المجتمع من حوله موبوءاً يموج رذيلة وفساداً ، ويرى الشرف والكرامة والنزاهة وكل ما إليها كلمات جوفاء لا يتحلى بها أرفع من يسودون المجتمع من امراء وأحبار وسادة ، فكيف يطلب اليه هو أن يخضع حياته لمثل هذه الأباطيل ؟

وكان كازانوڤا ينزل يومئذ عند السيد براجادين كما رأينا ويعيش منعما مرفهاً ، يقضى أيامه في لهو ولعب ونزه وغزل لا ينقطع ، يجوب شوارع البندقية المائية في قاربه الوثير ويتسقط مواعيد الحب كل مساء . وكانت المرأة عنده غاية الغايات ، وكان الحب فنه ومهنته التي كأنه فطر عليها بطبيعته وخلاله وعواطفه ، وكان مسلحاً لهذه الغاية بأخص الصفات التي تذلل له غزو القلوب ، فقد كان بديع القد والتكوين ، وسيم الطلعة ، ذا سمرة جذابة ؛ وكانت عيناه الواسعتان تشعان سحراً وذكاء وشهوة ؛ وكان ذا شخصية جذابة ، حلو الحديث والشمائل ، جواداً ، جم الأدب والظرف ، يضطرم حباً وجوى وكانت له فراسة خاصة في تفهم عقلية المرأة وميولها ؛ وكان ظفره المتوالى في الحب يذكى عزائمه ورغباته ، ويدفعه دائماً إلى البحث عن غزوات جديدة ؛ وكان يشعر شيئاً فشيئاً أن البندقية لم يبق فيها ما يمكن أن يغزو وأن يستمرئ ، وأن ايطاليا كلها قد غدت تضيق بجولاته ومغامراته ؛ وكانت فرنسا تجذبه يومئذ بشهرتها وروعة الحياة الساطعة التي يحياها المجتمع الرفيع فيها ؛ وسرعان ما سنحت له الفرصة لتحقيق أمنيته ، فسافر إلى باريس ليخوض غمار هذه الحياة الساطعة ، وكان يومئذ في نحو السادسة والعشرين

وكان المجتمع الفرنسى ، ينحدر يومئذ ، في عهد لويس الخامس عشر ، إلى نوع من الخول الباهر ، ويستمرئ حياة عاطلة من المثل المعنوية الرفيعة ، فياضة بالرغبات والشهوات الوضيعة ؛ وكانت دولة الغانيات ، من أمثال دوبارى وبومبادور هي صاحبة الحول والسلطان يومئذ ؛ وكان يلتف حول هذا الملك الخليع بلاط وضيع الخلال ، يضرب بتهتكه وانحلاله للمجتمع الرفيع أسوأ المثل ؛ وكانت حياة هذا المجتمع — مجتمع النبلاء والسادة — كلها لهو ولعب وحب وغزل وفساد ورياء ؛ فالى هذا المجتمع الباهر الخامل معاً هبط كازانوڤا يبحث عن طالعه في عالم الحب ؛ وهنالك تعرف منذ مقدمه بمواطنه الممثل الشهير ماريو باليتى وزوجته سلفيا ، وكانا يومئذ من أعلام مسرح « الكوميديا الايطالية » ؛ فعلمه شيئاً من اللغة الفرنسية ، وعرفه بكثير من الشخصيات البارزة من رجال ونساء ؛ واندفع كازانوڤا

ِ هذا العالم الجديد يتذوق مسراته ، ويتابع غزواته النسائية ن الممثلات والراقصات وسيدات المجتمع الرفيع ؛ وهو يذكر ا في مذكراته التي نشير اليها فيما بعد ، طائفة من أسماء هؤلاء للائي ظفر بهن في تلك الفترة مثل ميمي ابنة السيدة التي نزل ندها ، والآنسة فزيان وهي فتاة أجنبية زائرة ، ولويزون مورفي لشهيرة التي أدخلت « حريم » لويس الخامس عشر فيما بعد ، والآنسة سنت هيلير ، وسيلفيا زوجة صديقه ، وغيرهن ؛ واستطاع كازانوفا في نفس الوقت أن يتذوق طرفاً من الحياة الأدبية ، وأن يتصل ببعض كبار الأدباء والكتاب مثل فونتنيل ودلامبير والأب فوازنون ومدام دي بوكاج ، وأن ينظم بعض القصائد ، وأن يترجم بعض القطع والرسائل

وعاد كازانوفا إلى البندقية (سنة ١٧٥٣) وقد فاضت نفسه غبطة وزهواً بما تذوق من صنوف اللهو الرفيع ، وما حقق لنفسه من ظفر في ميدان الحب ، وبدت له البندقية عندئذ ضيقة متواضعة ، بالنسبة لما رأى وشهد في باريس ؛ وذكت أطماعه وأمانيه ، وزاد غروراً وترفعاً واستهتاراً ، وأخذ ينظر إلى هذا المجتمع البندقي من عل ، ويتصل بالكبراء والسفراء ولا سيما سفير فرنسا الأب دي برني ؛ ولم يكن كازانوفا متحفظاً في أقواله أو أعماله . فكان يطلق العنان لآرائه المتطرفة ، ويزاول الشعوذة علناً ، وكان يثير على نفسه السخط في كل ناحيـة ، وكانت علائقه الغرامية موضع الحديث ومثار النقمة ؛ وكان ثمة جماعة من النبلاء والكبراء الذين يضايقهم بلسانه ومنافساته الغرامية يتربصون الفرص لسحقه ؛ وكان من هؤلاء كبير من كبراء الدولة هو « الشيخ » كوندلار النائب العام ؛ وكان لهذا الشيخ القوى صاحبة تدعى مدام زوروزى سطا عليها كازانوفا وانتزعها منه ، فاعتزم التنكيل به ، وأطلق في أثره جواسيس الشرطة يقدمون عنه التقارير القاذفة ، وفيها أنه يتصل بالسفراء الأجانب بعلائق مريبة ، ويخدع البسطاء بمزاعمه السحرية ، ويعيش على نفقة الغير ، ويغوى البنات والنساء المتزوجات ، ويسخر من الدين ، وينتمي إلى البناء الحر (الماسونية) ، وغير ذلك من التهم الخطيرة التي تكفي لادانته وإهلاكه

وعلى أثر ذلك قررت محكمة التحقيق (التفتيش) اعتقال المتهم ، وفي فجر ٢٦ يوليه سنة ١٧٥٥ ذهب مدير الشرطة مع ثلة من رجاله الى منزل كازانوفا واعتقله ، وأخذه مصفداً الى قصر الدوجات ؛ وهنالك ألقى به الى السجن المواجه في غرفة لا هواء فيها ولا نور تعمرها الجرذان والحشرات المختلفة ، وتكاد لانخفاضها تقصر عن ايواء قامته المـديدة ؛ وفي الحادي والعشرين من أغسطس قضت محكمة التفتيش بادانته في التهم التي نسبت اليه ولا سيما الطعن في الدين ، وقضت بسجنه خمسة أعوام في سجن « الرصاص » الشهير (بيومبي) وهو الذي اعتقل فيه . وقضى كازانوفا أيامه الأولى في السجن في ذهول ويأس يكاد يمزقه الغيظ والكمد ، وكان منقطع الصلة بالعالم الخارجي ، لا يعرف شيئاً عن سبب اعتقاله أو مداه ؛ وكان يؤمل بادىء ذي بدء أن يسترد حريته بسرعة بمؤازرة بعض أصدقائه الأقوياء ، ولكن الشهور تعاقبت عليه دون أن ينفذ الى وكره المظلم شعاع من الأمل ، وأعقب الصيف الخريف ثم تعاقبت الفصول ، عندئذ ترك اليأس جانباً ، واستعاد عزمه وقوة نفسه ، وعول على الفرار ؛ ومازال يعمل في خفاء وصمت ، ويغالب الصعاب والرقابة الصارمة حتى نضج مشروعه . وفي ليل اليوم الأول من نوفمبر ، فر كازانوفا مع شريكه وجاره في السجن الأب بالبي ، وذلك بأن خرقا عرش الغرفة الرصاصي ، واستطاعا بعد مجهود عنيف مروع أن ينحدرا من جدران القصر الى ميدان القديس مرقص ، واستقلا زورقاً حملهما في جوف الظلام بعيداً عن مواطن الخطر ؛ ولم يأمن كازانوفا على نفسه حتى جاز حدود البندقية الى أرض بورجو دي فالرجانو المجاورة ، وبذلك أمن شر مطارديه واستطاع أن يتنفس نسيم الحرية مرة أخرى

* * *

وتركت تلك المحنة في نفس كازانوفا أعمق الأثر ، وكان قد جاوز الثلاثين يومئذ ، واستحالت لديه نزعات الحداثة الى نوع من التفكير المتزن ، وأخذت الأطماع والأماني تغلب على نفسه ، وتخضع لديه نزواته المضطرمة ؛ وكان همه دائماً أن يغزو المجتمع الرفيع ، ولكن غزو المجتمع الرفيع يقتضي مالاً ومناصرة ؛ وكان المجتمع الباريزي الذي عرفه حيناً وتذوق فيه لذة الظفر والأمل يجذبه دائماً ويلوح له بأعظم الأماني ؛ ولهذا نراه في باريس في يناير

سنة ١٧٥٧ يبحث عن طالعه كرة أخرى ؛ وكان صديقه وحاميه القديم السيد براجادين بعده بمرتب حسن ، وكان صديقه الأب دى برنى سفير فرنسا السابق فى البندقية قد عاد الى فرنسا ، وتولى وزارة الخارجية ، فتقدم اليه يطلب عونه ، فأوصى به بعض كبراء الدولة ؛ وكانت المشكلة المالية أهم ما يشغل فرنسا يومئذ وفى سبيل حلها تقدم أغرب المشاريع والاقتراحات . وكان من بين المشاريع التى وضعت لايجاد بعض المال أن تصدر الدولة « أوراق يانصيب » يغطى إيرادها نفقات المدرسة الحربية التى أنشئت يومئذ لتخريج ضباط للجيش الفرنسى ؛ وكان يضطلع بالمشروع اخوان ايطاليان يدعوان كالسابيجى ، فاتصل كازانوفا بذوى النفوذ والمشرفين على العمل ، وكان يتمتع فى ذلك الميدان ببعض الخبرة ويقدم عن المشروع آراءه وملاحظاته ، فروى أن يعين مديرا للمشروع بمرتب ضخم وعمولة حسنة ، وصدر بالمشروع قرار وزارى فى أكتوبر سنة ١٧٥٧

وهكذا تبوأ كازانوفا منصباً خطيراً مربحا يحقق له تلك الحياة الناعمة المستقلة التى طالما طمح اليها ، واتخذ له مسكناً فخماً فى ضاحية سان دنى يموج بالنعم والحشم . وأقبل الناس على شراء أوراق اليانصيب الحكومية إقبالاً حسنا ؛ ووقع السحب الأول فى ابريل من العام التالى وأسفر عن نتائج مرضية ؛ ثم وقع مراراً خلال العامين التاليين ، وظفرت المدرسة الحربية بكل النفقات اللازمة ؛ وحقق كازانوفا لنفسه ربحاً وفيراً يقال إنه بلغ مائة ألف فى العام ، هذا عدا ما كان يربحه من أعمال التنجيم والشعوذة التى لم ينقطع عن مزاولتها ؛ وعهد اليه أثناء ذلك ببعض المهام الرسمية السرية فأداها بنجاح ؛ وعهد اليه أيضاً بمهمة مالية فى هولنده فأسفرت عن نتائج مرضية ؛ وهكذا ذاع اسمه وتوطد مركزه ، وزاد ثراؤه ، وشعر لأول مرة فى حياته بأنه غدا الرجل الذى طمح أن يغدو ، ينثر الذهب من حوله بلاحساب ، ويحقق لنفسه أعز الرغبات والأهواء والأمانى

واتخذ كازانوفا لنفسه خارج باريس مسكناً آخر غير مسكنه الباريسى أنيقاً وثيراً به حاشية باهرة ، وخيل مطهمة ، وهنالك كان يقضى معظم أوقاته فى متاع ومرح ، يطلق لنفسه عنان الهوى والحب ، ويستمرئ غزواته النسائية بلا انقطاع ؛ وكان كازانوفا يعشق الحياة الفخمة ، ويتملق بمظاهر العظمة والأناقة ، ولكنا لبث دائماً ذلك المحب النهم الذى تغلب لديه الغرائز الوضيعة والذى يسعى الى ارضاء شهواته المضطرمة بأى الوسائل ، وفى أى الظروف والمناسبات

وانفق كازانوفا فى باريس بضعة أعوام فى عيش طروب خفض يغزو جميع القلوب ، وينعم بوصل السيدات والغانيات من كل ضرب ويزاول التنجيم والشعوذة ؛ وكان يتسمى عندئذ بالشفاليه دى سنجال ، أو الشفاليه سنجال دى فاروزى ، ويبهر الناس بروعة مظاهره وأساليبه ، ويتقرب من الأكابر ، وينعم بالجاه والنفوذ والثراء . بيد أن هذه الحياة الباهرة كانت تنضح دائماً عن جوانب وثغرات مريبة ؛ ذلك أن كازانوفا لم يكن متحوطاً فى مغامراته وعبثه ؛ ولم يكن يحجم عن أى الوسائل لاستلاب المال أو القلوب ؛ ومن ذلك أنه اشترك فى حادث تزوير أوراق مالية ، وأغرى عددا من أكابر السيدات ، ومنهن المركيزه دورفى التى خدعها واستحوذ على قلبها ومالها بشعوذته ؛ وسطا على كثير من الأزواج والآباء ، فاستلب منهم زوجاتهم أو بناتهم ، واتصل بجماعة خطرة من الأفاقين ولصوص المجتمع الرفيع يدبر معها الخطط والمشاريع المريبة ؛ وذاعت هذه الوقائع والفضائح المزرية ، وكادت تدفع بالمغامر الجرىء الى غمار لا تحمد عواقبها ، ولكنه آثر الهجرة مرة أخرى ، وعبر عندئذ شطر هولندة مزوداً ببقية من المال والجاه وتوصيات بعض الأكابر

ونزل كازانوفا فى لاهاى سنة ١٧٥٩ ؛ واستأنف هنالك حياة البذخ والطرب ، يعيد سيرته التى جازها فى كل المواطن ، عاشقاً مضطرماً تحمله شهواته حيثما يحمله ظفره ، وتسقط فرائسه بين أذرعه تباعا ، ويبتز المال من هنا وهنالك بكل الوسائل والحيل ، ويستمرئ حياة الخديعة والشعوذة والغواية إلى الذروة ، ويثير حوله بعد حين نفس الشكوك والريب التى يثيرها أينما حل ؛ وإذ يشعر بأن وسائله وحيله ومظاهره كلها قد نفقت ، وأن الجو يتجهم من حوله ، يعتزم الرحيل والنقلة . وهكذا غادر كازانوفا لاهاى كما غادر باريس من قبل مثقلاً بالريب والفضائح ، وهبط إلى لندن فى خريف سنة ١٧٦٣ تحدوه آمال وأمانى أخرى

(للبحث بقية) محمد عبد الله عنان

(النقل ممنوع)